مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٧٦/٥/١٦

مصطفى بهجت بدوى

٥ ســـــنوات مـــــع ١٥ مايـــــــو

الكلمات الفائرة مستهلكة وادنى الى الاصطناع « قصـــائد المديح » لا هى مطلوبة ولا مقبولة ولا مفيدة . الصمت .. لا مانع ، فليس المفروض ان يخطب الجميع او يكتب الجميع او يهتف الجميع ، وليست دلالته « اتخـاذ موقف » ، ولا هو خصام ولا رضا حتما مقضيا . انما النفاق رخيص كريه . كما ان النهج ظلم وحرام . إلى ان النقـد مباح ما دام خالصا متجردا مؤسسا ، انما فليذكر ان طلب المثالية وهم او عدم فهم عملى لتناقضـيات السلطة و « اليـد التى فى النار » ! مع اضافة لازمة : لا يؤخذ الامر « باسراف » هنـــا او هناك . والاسراف ، مثالة نسبية ، وان كانت المسـائل النسبية موضـــع خلاف فى التفسير والتطبيق منذ ان قام المجتمع . لست اتفلسف ، ولا « اتحذلق » ، ولا حتى احاول القيام بعملية « تقييم » . انما افكر بصـــوت عال . اترك لخـواطرى العنان على السجية . اتامل السـنوات الخمس الماضيـــة والسنوات الخمس القادمة بالحب المبرح الصافى لهذا البلد ، وبما اخاله نظرة موضوعية ، وبمـــا احسبه صدقا مع النفس وصدقا مـع الاخرين . بالقدرة على الشعور دائما ، وبالعجز من التعبير احيـانا . ولست وحدى ، فهو فى صـــورة ما .. طابع منتشر . نعرف الداء ونستشعره ونكثر الحديث عنه ، ولكنا قد نقف حائرين امام الدواء وامام الحلول .. واذا عرفناها قد لا يحدث « الالتحام » بيننا . كانها فى بعض الاحايين عضو غريب يرفضه جسدنا . قلب آخر مزروع فينا لا نتحمله ، مع انه هو قلبنا الحقيقى النـابض اذا استنبضناه !

كلام ؟

ما علينا من انه « فى البدء كانت الكلمة »، ولكن الكلمة — رضينا أم ابينا — لها ماض وحاضر ومستقبل. فى سجل السنوات الخمس الفائتة كلمات كثيرة وكبيرة وخطيرة . نحن نتأثر بالكلمة . ليست كل كلمة . انما — وهذا مدخل آخر الى تصحيح ١٥ مايو وحركته وثورته — اقصد الكلمة الفاعلة البعيدة الصدى والتغيير الى ما هو أصلح . او الكلمة التى تترجم عن قرار هو ايضا بعيد التأثير والفاعلية . لذلك، فعلى وفرة الكلمات والاحاديث والخطب الهامة فانى اعتبر حديث ١٤ مايو ١٩٧١ ثم خطاب ١٦ اكتوبر ٧٣ الطليعة والذروة.

الأول

فى ١٤ مايو ٧١ ببساطته وصراحته وذكائه وايمانه وشجاعته طرح السادات بتصحيح ١٥ مايو الذى لقى استجابة شعبية عارمة . اعنى انه خلال ساعتين او ثلاث من الكلمات الجديدة « غير المألوفة » من رئيس الجمهورية استطاع بعمقها وابعادها ان يحرك ويا كان يساور اعماق الجماهير ، فلبتها على الفور فى اليوم التالى ووقفت معه فى مواجهة كل القوى التى كانت تقبض على ناصية الحكم ، وكانت قد اخذت بخرفها وازينت وظنت ان اهلها « ان » يقدروا عليها ، فسقطت فى غمضة عين لانها هباء يستند الى خواء ! ولم يكن هذا هينا ، ولكنه على اى حال ما كان هذا الامر الجلل . ولا كان كذلك أمرا خطير الاهمية ان يقوم اتحاد الجمهوريات العربية الذى لم يفصح فيما بعد عن وجهين يستأهل تفجير ما فجرناه . ربما كانت « تكاة » ، ولا يضيرها ولا يعيبها — سياسيا وتكتيكا — ان تكون كذلك وان

استخدم . الامر الجلل البالغ الاهمية بالفعل — وهنا يشرق صباح الكلمة الفاعلة المصححة المغيرة للاصلح — ان الحرية وسيادة القانون انتقلنا من شعارات ترفع الى ممارسة متحضرة لا يستطيع اى ومنصف ان ينكرها . وعندى وعند الملايين ان الحرية التى آمن بها وأرساها وكفلها الرئيس انور السادات هى اعظم انجازاته على الصعيد الداخلى.

نتكلم بحرية ولا نخاف . نكتب بحرية . نناقش بحرية . ننتقد ونسخط «ونشنع» احيانا ثم لا يترتب على هذا اعتقال، لقد صفيت المعتقلات تماما ، «غارت» مراكز القوى التى اكتسبت سطوتها « بتخويف» الحاكم وارهاب المحكومين . من يقبض عليه فمن طريق النيابة وباتهام سياسى محدد وبمعاملة انسانية ، واذا ثبت بطلان الاتهام — وكثيرا ما يثبت — فالافراج فورا ، بل عادة يسبق الصفح الافراج . **ورغم كل الاثارات من جانب ورغم « الفتاوى » المزايدة من جانب آخر بضرورة « التصفية » والحسم والاعتقال ، فان السادات لم يتحول فى هذا عن سيادة القانون** ، وبتصميم متبتل بل بتبكيت للمزايدين . وكل ثورة او حركة يتفتق لها من يظنون انفسهم انهم « **حواريوها** » ! وقد تشنج امثال هؤلاء مع ١٥ مايو طويلا ، وصدهم السادات فى رفق . ولم اسكت عنهم فكتبت فى ذلك الحين من منطلق الحرية التى استنشقها اقول « ان حركة التصحيح مملوكة للشعب . والذين يتصورونها ملكا لفئة دون اخرى يخطئون كثيرا ، ويظلمون حركة التصحيح والسادات ومصر . أما الذين يتاجرون ويزايدون عليها فهم كذلك يظلمون انفسهم ويخسرون كثيرا ، بينما الظاهر ان هدفهم هو — والله اعلم — الكسب الشخصى ، او ربما بسبب ان ذاك وحده

هو هدفهم » . وهؤلاء انفسهم هم الذين حاولوا التفريق بين ٢٣ يوليو و ١٥ مايو . وكلما اخذ السادات يؤكد أن ٢٣ يوليو هو الاصل والاستمرار وأن عبد الناصر لو لم يمت لقام بالتصحيح ذاته وكاملا ؛ راح هؤلاء يتصايحون : لا . ١٥ مايو و « بس » ! وهم — اغلب الامر — وشاكلتهم الذين كانوا يتمنون عودة الارهاب ؛ ولحسابهم من ولحساب ماذا .. لا ادرى !! **وللتاريخ ولاحقاق الحق وللتدليل على صلابة السادات فى مسلك الحرية وسيادة القانون ، اذكر انه اجتمع فى صيف سنة ١٩٧٢ بالمعمورة مع عدد محدود — وكنت من بينهم — وادار حوارا ديموقراطيا حول « الانضباط » . وتطوع واحد من هؤلاء** — عفا الله عنه — ذاكرا ان « المشاغبين » معروفون بالاسم لدى اجهزة الامن ، وان الحل الوحيد هو اعتقالهم . وقال الرئيس السادات فى غير تردد : **ابدا لن اعتقل احدا** . ان الشعب هو الذى يتولى الحكم عليهم . كل شىء بسيادة القانون ؛ ولن اتزحزح من هذا المبدأ . ولربما **غضب السادات وانفعل فى بعض** المواقف ،ولكنه سرعان ما يصفو ويعفو وليهد الله الذين يستقتلون للصيد فى الماء العكر بين آن وآخر . ونحن شعب عاطفى ولا جدال . كلمة قد تسخط « الشارع » ، وكلمة ترضيه . وهو — اى الشارع المصرى — اذا رجع الى نفسه ، وبحكم الاعتياد والطيبة يفعل ؛ ويهدأ ويهنأ .. ويفهم ويقنع ،وخاصة اذا وجد تشجيعا . لقد كانت الحرية وسيادة القانون ومحاولة اقامة دولة المؤسسات هى اثمن واحلى الثمرات التى طرحتها وانضجتها افكار ١٥ مايو . ولم يهمها ان تضمنها الدستور الدائم بقدر ما همها ان تؤتى اكلها كل حين باذن

ربها . وهناك — قبل ان انتقل من تجربة الحرية الخصيبة — فكرة قد تعتبر على حد تعبير العرب « ليست هناك » ! على اننى « اجازف » فابديها على استحياء ، وامرى لله ، حتى ولو لم تكن تلقى قبولا كثيرا . الفكرة — او الاقتراح — هو النظر فى الافراج عن البقية الباقية ممن حوكموا امام محكمة الشعب بصدد أحداث ١٣ و ١٤ مايو . وذلك بمناسبة العيد الخامس لـ ١٥ مايو . لست أعرف عدد الباقين الان . قد يكونون عشرة او اقل او اكثر .. ومنهم — طبعا — « على صبرى » . وليست انشفع لهم ولا ادافع عنهم ، ولا تربطنى بهم صداقات . ولنأخذ « على صبرى » مثلا ، اذا صنفته فهو فى عداد من « حاربونى » شخصيا فى سنة ١٩٦٦ . ولقد اكون اكتشفت فى فترة مبكرة كيف اصبح « مركز قوة » عندما شكا لى اخى المرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى فى آخر حديث تليفونى لى معه قبل وفاته بيوم واحد فى مارس سنة ١٩٥٧ قائلا ان على صبرى لا يمكنه من مقابلة جمال عبد الناصر لعرض مسائل هامة وعاجلة بوصفه كان رئيسا لهيئة قناة السويس .. رحمه الله . ولكنى لم اشمت فى على صبرى ولا انتقم . نحن فى مصر نستعيذ من أن نشمت فى أحد او يشمت فينا ونتعفف عن الانتقام . غاية الامر انهم — حقيقة — لا يمثلون شيئا ولا خطرا ، كما ان العفو قد شمل آخرين منهم . اما القول بانهم « اعداء الشعب » .. فكم كان للشعب من اعداء « افلتوا » ، فى حين ان هؤلاء نالهم بعض القصاص . معذرة اذا كنت قد اطلت واستطردت او انتهيت بأن اصدم بعض المشاعر . ولكن « الرأى الاخر » لا ينبغى ان يزعج مهما كان « غريبا » وما دام غير مغرض .

الخطاب الثانى

خطاب القائد المنتصر انور السادات فى ١٦ اكتوبر ٧٣ الذى اضعه ايضا فى ذروة كلمات وانجازات ١٥ مايو انما ترجم عن قرار بعيد الاثر والفاعلية . كان خطابا بليغا حقا ، بل لعله ابلغ خطب الرئيس السادات . ولا اعنى البلاغة اللفظية — وان امتاز بها — ففى السياسة قد يكون هذا النوع من البلاغة آخر شىء مطلوب . انما بلاغة الموقف . ويكفى ان نذكر منه على سبيل المثال قوله من موقع النصر والعبور الذى أنهى التمزق والمهانة وشفى الغليل « **اننى افضل احترام العالم ولو بغير عطف على عطف العالم اذا كان بغير احترام** » أو قوله **والمعركة مستمرة وهو يعرض السلام** « هذه ساعات تقدم فيها ابطال . هذه ساعات سقط بل ارتفع فيها شهداء . هذه ساعات حافلة بمشاعر متباينة تمتزج فيها صيحة الفرح بمشاعر عميقة اخرى . **ذلك اننا كنا ولا زلنا نريد الحق ولا نريد الحرب . لكننا كنا ولا نزال نريد الحق حتى اذا فرضت علينا الحرب .** وحين كانت نشوة الانتصار تملأ كل القلوب فاننى كنت فيما بينى وبين ربى اعرف مدى العناء الانسانى الذى ندفعه فى سبيل النصر ».

ان الذى يجمع بين عبد الناصر والسادات كثير .. على اختلاف طبيعة الاثنين « فجمال عبدالناصر من الاشخاص الذين يعيشون على اعصابهم المشدودة دائما ، أما أنا فقد علمتنى طبيعتى

الريفية الهادئة ان اتجنب كل ما من شانه ان يوتر اعصابى بقدر الامكان ، ولكن مع الاصرار الموضوعى لتحقيق الهدف المنشود : مذكرات الرئيس السادات».
غير انه مما هو جدير بالملاحظة ان عبد الناصر « ولد شعبيا » مرتين . الاولى فى سنة ٥٤ عندما تعرض فى شجاعة للرصاصات الطائشة بمنشية الاسكندرية . والثانية عندما كسب معركة العدوان الثلاثى فى سنة ٥٦ بعد تأميم لقناة السويس . كذلك فان السادات « ولد شعبيا » مرتين . الاولى عندما تعرض فى شجاعة لمراكز القوى فى ١٥ مايو ٧١ . والثانية عندما كسب معركة العبور فى اكتوبر ٧٣ .

على ان « المطب الدائم » للاثنين هو الموقف الاقتصادى . ولقد تكون اثقاله فرضت علينا وارادتها لنا مؤامرات الاستعمار واعدائنا . وقد تكون المعارك استنزفتنا . ولكنا — على ما يبدو — وقعنا فى تعميمات والفاظ مطلقة لانقوى على تفصيلاتها والتدقيق فى ترجمتها العملية بكل ما تحمله من عناء ومثابرة، فضلا عن اننا تخبطنا كثيرا (اخشى اننى ارتكب المحظور نفسه واقع فى التعميمات). قلنا : التطبيق الاشتراكى . وكان لزاما. بيد اننا تعثرنا فى فهمه وفى اعماله بل فى الايمان به مع كونه — ولا شك — افرز قطاعا عاما قادرا على ما فيه من بعض الثقوب . قلنا : الانفتاح — وهى الاخرى كلمة مطلقة وشبه مبهمة وغير مشروحة الشرح الوافى لعامة الناس وربما لخاصتهم ايضا — مع الحفاظ على القطاع العام .. وكان لابد ان نحافظ عليه . ومازالت المشروعات بطيئة .وقد تكون كذلك بطبيعتها — والمعنى قائما ، فى حين ان الناس ترى من الانفتاح مزيدا من المواد الاستهلاكية والترفيه التى يكتفى

حتى ذوى الدخل المعقول بمشاهدتها ومصمصة الشفاه . اعلم أن العملية ليست سهلة ولا حلول جاهزة لهـا . فالحل الاشتراكى يقتضى تعبئة سياسية ضخمة وخاصة ومناخا قد نكون فى أشد الاحتياج اليه ولكنه غير متاح . والحل الاشتراكى غابة قد يمرح فيها الغيلان ذوو الدخول الطفيلية فهو مخيف ومرفوض. والحل « المختلط » يتطلب كياسة ورقابة صارمة وتفصيلات نود ان نتنبه اليها.

ولقد

بدفعنا الحديث المتقدم الى قضية اخرى هى الجوهر والاساس اعنى بها: بناء الانسان المصرى . ونحن نتعسف مع الدولة اذا طالبناها بأكثر مما تستطيع.. فالدولة آخر الامر هى نحن الشعب ، وما لم نشارك بالعمل فماذا يمكن أن تفعل الدولة ؟ الدولة لا تبنى الانسان المصرى ، وانما هى توفر له الامكانات والتيسيرات وتبارك له المبادرات الحميدة ، وتعطيه الثقة والممارسة السياسية ليبنى نفسه . كم مرة تحدثنا عن بناء الانسان ، وكم مرة اعلنا اننا نسلم الثورة للشعب؟ الميثاق الوطنى ٦٢ . بيان ٣٠ مارس ٦٨ . البرنامج الوطنى ٧١ . ورقة اكتوبر البعيدة الرؤية الى سنة ٢٠٠٠ والتى تم الاستفتاء عليها منذ عامين اى فى ١٥ مايو سنة ٧٤ .

وليست مداهنة ولا ممالاة ولاتبسيطا وابتسارا للمسائل ان نقول ان الحريات وسيادة القانون تساعد على بناء الانسان المصرى ، وان كان ثمة قضايا كثيرة تلزمها البلورة والممارسة الصحبة والعمل .. بكل ما يحمله العمل من كونه حقا وواجبا وشرفا .. فعلا لا شعارات . كما ان تجربة المنابر يتعين ان تسفر عن خير كثير فى التربية السياسية وفى

الانتاج والخدمات . ومما يدعو الى الاطمئنان والامل ان المنابر الثلاثة — وبغير تفرقة — هى محل هتافة وارتياح وتشجيع رئيس الجمهورية ، وانه لايعتنق « الرأى الاخر » ولا ينبذه — الا اذا فاز بالاغلبية — ولكنه يعانقه ويحييه .

ذلك يدعو الى التفاؤل بالمستقبل وخاصة فيما يتعلق بتحرير الانسان المصرى وبنائه ، وبتحرير الارض .. وتلك مشكلة اخرى او بالاحرى مشكلة اولى . هنا يبرز الدور العربى ومستقبله .. والصلة بيننا اكثر من عضوية فهى كيان واحد ، واكبر من مصلحية فهى مصيرية . اقول الحق ولو كان ثمة «تجاوز» فى توجساته المشفقة. قد تكون هناك مؤشرات لدور تفتيت « امريكى » لجهود المنطقة العربية وانطلاقاتها وطاقتها وتضامنها ثم يقوم ما يسمى « احتواء » .ليس هذا توجسا شخصيا او سوء ظن ، بل **ان عددا غير قليل من الكتاب والصحفيين الامريكيين انفسهم يشيرون اليه تلميحا وتصريحا،** ويستنبطون — بحرية فكر جسورة وملحوظة ونيرة مقدرة .امكانية واحتمال ذلك . فهم يتهمون سياسة بلدهم بمؤامرة تخريب لبنان وبابعد منها .

هل نحن متيقظون لما قد تدبره هذه الدولة العظمى او تلك .. لنملك نحن اقدارنا ؟ لابد ان نكون حذرين ومتيقظين وايجابيين .. واننا لكذلك . وليكن تعاملنا مع الجميع ومع انفسنا هو — كما عبر السادات ذات مرة — بقلب مفتوح .. وبعقل مفتوح دائما ! .